

في الأدب المصري

مجالس الأدب في القرن الثامن عشر للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لقد هممت اليوم أن أكتب إلى الرسالة الفراء مقالاً ثانياً أستأنف فيه وصف مجالس الأدب في مصر في القرن الثامن عشر في أيام رضوان بك أمير مصر وأحد ملوكها في ذلك العصر، ولكنني رأيت الأمر قد استقصى على إذ جمعت أنقل من قول أحد شعراء المصر بعض مراقي، وذلك الشاعر هو ابن الصلاحى، فرأيت ذلك البعض الذى اخترته قد زاد على المقدار الذى يجمل بى أن أجعله لمقال واحد. فعدلت عن رأي الأول وقلت حسبى أن أخص بهذا المقال ذلك الشاعر وحده. ولعل الاختصار على حديث شاعر واحد أبلغ فى قصدى وأقوى لحجتي التى أرى من ورائها إلى بيان حقيقة فى تاريخ مصر. فان غزارة قول شاعر واحد من شعراء هذا العصر لدليل على أن ثقافة ذلك العصر لم تكن ثقافة ضحلة، بل كانت ثقافة أعمق وأقوى مما يتوهمه الكثيرون. كان ابن الصلاحى ناظراً وناثراً وعالماً من علماء العصر. قال من العلم الزورث: أقصى ما يناله المتطلع إلى الحياة العقلية. وقد كان تلميذاً للشيخ محمد الحفنى المشهور وأجازه ذلك الشيخ إجازة علمية قد يكون من الطريف أن نقلها هنا. قال الشيخ:

«محمدك يا عليم يا فتاح، يا ذا المن بالعلم والصلاح، ونصلى ونسلم على أقوى سند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد. أما بعد فان المولى العلامة الفهامة الحاذق الأديب، واللودعى الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحى السيوطى قد حاز من التحلى بقرائد المسائل العلمية أوفى نصيب، بفهم ناقد وإدراك مصيب، فكان أهلاً للانتظام فى سلك الأعلام، بإجازته كما هو سنن أئمة الاسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات، من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الانبياء، وبسائر ما تجوز لى روايته أو ثبتت لدى درايته، موصياً

له بتقوى الله التى هى أقوى سبيل للنجاة، وألا ينسى من صالح دعواته فى أوقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه فى عقد أهل قربه، وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام وعلى أئمة الهدى، وصحبه نجوم الاقتدا. كتبه محمد بن سالم الحفناوى الشافى ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف»

وقد كان ابن الصلاحى فوق ذلك كاتباً حسن الخط كتب نسخة من القاموس بخط يده، وقد كان للخط الحسن نهضة فى ذلك العصر مثل سائر أحوال البلاد، فقد نبغ من معديه جماعة من أفاضل الكتاب مثل الضيائى والشاكرى والحزائرى والحمائى ولكن أكبر ما امتاز به ابن الصلاحى ميله إلى فن الأدب، فقد أخذ منه بالحظ الأوفر، وقد اتصل بحلقة الأدب فى بلاط الأمير رضوان ونال من خيره الشيء الكثير. على أنه كان غير منقطع اليه، بل كانت له مجالس خاصة مع جماعة من أدباء عصره ومشيوخه العلم فيه. ولعل خير ما قاله من قصائده ماجاش فى نفسه فى تلك المجالس الخاصة

قال يصف خطرات نفسه:

بُشاً عن النَّائى الغريب جلاً من الخبر العجيب
واستوقفا الركبان ما بين الاراكة والكثيب
واستنشدا القلب الذى قد ضاع من بين القلوب
سلبته يوم الدوحتين ن طليعة الرشأ الريب
وسرت به نحو الجيا م يد الصبا ويد الجنوب
ترنو الهواجج عن صفا شمس تميل إلى الفروب
والبدر يذهب من خلا ل السحب فى مرأى عجيب
والرق يخفسق والزوا هر مثل قلبى فى وجيب
يا حدى الميس التى سارت على قلبى الجنب
علل عليل هوى فمهدك ما تقادم بالطيب

لانى وإن شط النوى وقف على حب الجيب
كأبت ما كأبت من شق المرائر والجيوب
وعلمت كيف تقوم أسواق المارك والحروب
ولقيت دون البيض وقسع السم بالصدر الرحيب
من كل ريم جائل فى برد جردته النشيب
يحكى الغزاة فى الترف مع والغزاة فى الرنوب

الحاظه ترويك ديوان الحاسة عن حبيب
وقعات أسهمه تركن جميع جسمي في ندوب

كم ليلة عانقت فيها قامة الفصن الرطيب
في مهاد ما فض عنه الأنس إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكاء الطل بالثغر الشنيب
والريح تكتب في العدير حديث أسرار الغيوب
والطير تقرأ والنصون تهز أعطاف الطروب
والورق تصدح في النصون بصوت محزون كئيب
في رنة الشادي وهي نمة القطا والعندليب
عجاء تعرب في السواحل وتستجيب بلا مجيب
والليل أرسل ذيله رسداً على أعلى القضيب
يحكي الشهور كأنه يروي الفروع عن الخطيب

أرنب وأحشائي من الاهدنان في شك مراب
لولا الرقيب ظفرت من لقياه بالفرج القريب
وكشفت من وصلني به ما قد ألم من الكروب

ولئن حل بنفس القاريء من هذه النفثة مثل ما حل بقلبي،
لأيقن أن ابن الصلاح إنما كان يترجم عن قلب نابض بحياة
حقيقية لا تكلف فيها، وأنه كان يصدق بأنغام تبين عن حرارة
ووجدان طبيعي. وهما هي ذى نفثة أخرى اختار منها البعض لا أنه
أحسن ما بها، ولكنه مثل مما تحويه من آيات. وهي في مدح
شيخه الحفني:

ملي في فقد وقد الهجير إلى بظلك مستجير
وأرح مطيك يا سمي ر فقد أضر بها السير
هذا الحمي قارصد إذا ما استأنس الظبي النفور
واطرق كناس الفيدحي ث بنام راعيه القيور
وأعط ستاره فذ لك حين تفتح الحدور
واسأل من الظبيات عن عهد ترض به الصدور
واحفظ فؤادك أن تصيب عيونهن فهن حور
من كل غانية بلو ح بوجهها القمر المنير
تختال في مرح الشبا ب فيخجل الفصن النصير
تسي فتقدمها روا دفها وينهضها الحضور

سكرى رأيت كسر القلوب بفسار ناظرها الكسير
فعلت بسحر جفونها ما ليس تفعله الخور
حنثت معاطف خدها لكن لواحتها ذكور
لم أنس إذ والى البشير ر بلوح في فمه السرور
إذ أقبلت ريح القبور ل بها وأدبرت اللبور
فضممتها وعمهجتني من حر أشواق سعي
فتعذت بالروض من شر بأنفاسي يطير
روض تعلق بالمجر (م)ة من جوانبه هور
تبدو به زهر الزهور ر لأنه فلك يدور
ضحكت تنور زهوره فبكي لها النوء المطير
وحنت نواعره وحنت وهي من غيظ تفور
ذكرت قديم عهدها فانهل مدمعها الخير
يا طيب أنفاس الريح فني تنفسها عبر
والجو بحجرة عليها من ضبابها بخور

والورق ساجمة لها في كل ناحية سمير
عجاء تعرب عن ضا ثنا وليس لها ضمير
والريح تمتق النصون بها فتعتق الزهور
وبدت شموس الراح محلها الكواكب والبدور

وبكت عيون السحبيون تساقط الدمع الغزير
نحنا معاً فتحت الم أغصان منا والنحور
رعيا لذيالك الحمي والطرف مبتهج قرير
قد لج بالقلب الغرور ر وذلك الطرف الغرير
ومرور أيام الصبا من دونه الميشن المرير
ثم انتقل إلى مدح شيخه ومضى فيه مثل قوله:

ملاً النواظر منه إجلالا وليس له نظير
وحماه ينفك الأسير ر به ويستغنى الفقير
من تذل لها الرقا ب ولا يقوم بها الشكور
وجرت لنحو حماك آ مالى وأنت بها جدير

خذها على شرط الصبا رف إن ناقدها بصير
أليس هذا قولاً يترجم عن قلب جياش وخيال وثاب؟

كيف حفرت بئراً

.... لنفسى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

شعراء ، ذهبية الشعر ، لأدري كيف أنبتنا هذه الصحراء ؟
ومن بنات الفقراء ، ولكن لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتي
نشأن في كنف النعمة والترف والثراء ، وفي كلامها خفة وهزج ،
وفي مشيتها بخت لا يتقل ، وميس ليس من الاختيال . وكانت
ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعصمه ، بل ترده
عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذن ، وتستبر به أذناً . ولا تثبته
بالأمشاط أو الدبابيس ، ولا تعصب رأسها بالناديل ، فإذا عبث به
الهواء وأسأل قصتها على وجهها رفعت الشمرات بأصبعها أو
بمخما عن أذنها ، وكنت لا أراها بتتسم إلا خيلاً إلى أنها ترى
حلماً يسرها فينب قلبى إلى حلقى ، وأجد حراً النار في كفى

وكان بيتى في ذلك الوقت على « نخوم العالمين » وكانت له
حديقة صغيرة جعلها شغلانى . وكان الماء كثيراً ومثمه زهيداً ،
لا يتجاوز خمسة عشر قرشاً في الشهر بالغاً ما يبلغ ما أجريت منه ،
فكنت أخذ كفايتى منه وأسئته على وجهه للجيران ، وكانت
هذه الشعراء نجى كل مساء بجرة فتملؤها مرة أو اثنتين أو
عشرًا - كما تشاء . فأقف لها وأحاديثها وأساعدها على رفع الجرة
إلى رأسها . ولم تكن هي الوحيدة التي تستنى ، ولكنها كانت
أبرعمن شكلاً وأخفهن على الفؤاد ، وكانت تأنس منى الليل
إليها والأعجاب بها ، فتطيل الوقوف منى أحياناً ، أو تتولى عنى
عزق الأرض أو بذر الحب أو سقى الزرع ، واجترار الكلا
والعشب والحشيش أو نزع ذلك بأصوله ، وكانت أعرف منى
بذلك كله وأخبر ، وكانت تضحك منى الجهلى فتقول لى مثلاً :

« ألا تحش هذه الملوخية ؟ لقد كادت تكتمل »

فأقول : « ملوخية ؟ لقد طرحت هناحب فجلى فكيف تخرج

الأرض ملوخية ؟ »

فتقول : « كلا ، هذه ملوخية وقد بانغ نبتها المدي ،

فاختضرها (١) وإلا فسدت »

(١) الاختصار جز الخضرة

وقال في بعض مجالسه :

هات لى قهوة الشفامن شفاهاك واسقنيها على نخامة جاهك
عاطنيها يا أوحد المصر لطفاً وبديع النبال فى أشباهك
ياغزالا لوصور البدر شخصاً ليضاهيك فى البها لم يضاهاك
عاطنيها جهراً شفاها ولا تخش ملاما فلذنى فى شفاهاك
وأرسل إلى صديق له :

ذكرتك لا أنى نطق وإعما ذكرتك فى نفسى فكنت سميرها
ذكرتك فى روض تبسم عن شذا وقد فتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى

كأنك قد آويت منها ضميرها
فلا خير فى أرض إذا لم تكن بها سميراً ولا فى روضة لن تزورها
ذلك مثل من أدب حى حياة تنبض قوية ، يفتتح عن زهر
تضير غض ، وهو فى الوقت عينه أدب عميق قوى ، تسمع منه
نقمة حلوة بليغة تدل على روح شعب يحس بنفسه آخذ فى سبيل
الحياة والشباب

فالحق أن شعب مصر فى القرن الثامن عشر ، كان آخذاً فى
سبيل نهضة حقيقية فى كل جوانبه ، نهضة وطنية صرف لا تشوبها
رطانة أجنبية ولا لونة أنجيمية ولا سيطرة غربية . نهضة لوسارت
فى سبيلها وبلنت قصارها لكانت مصر بها اليوم فى مستوى
اليابان أو إيطاليا أو فيما هو فوق ذلك . غير أن القرن الثامن
عشر ، واحسرتاه ، انتهى بنكبة شاملة وداهية قادمة باغارة
الفرنسيين على مصر ، واكتساحهم كل آثار تلك النهضة الشاب
فقضى عليها ولما يتم نموها ، وحفرت بين ماضى مصر وحاضرها
هوة عميقة تقطع تيار الرق الوطنى ، وتقف فى سبيل وصل
الطارف بالتالد

فوجد مصر السياسى فى القرن الثامن عشر أصبح نسبياً ،
ومجد مصر الاجتماعى فى ذلك القرن كذلك قد أصبح أثرأ دارساً ،
وجهاد مصر الدستورى قد صار دقيقاً تحت اقتاض تلك
الكارثة ، فلم تبق منه معالم ولا آثار . غير أنا إن فاتنا أن نبني على
أثر هذا التراث النهوب ، أو ضاع علينا أن نصل حاضرنا بذلك
الماضى المضيق ، فليس أقل من أن نعرف أن لنا فى ذلك الماضى
أنفساً يليق بنا أن نحرمص عليها ، وأنعاماً يجمل بنا أن نجعلها

محمد فريد أبو هريرة